بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

يُجمع الباحثون والمؤرّخون على التقدّم الكبير والملحوظ، الذي حظيتْ به العلوم على اختلاف أنواعها وتشعّباتها، في الفترة التي أعقبتْ ظهور الإسلام في شبه الجزيرة العربية، من القرن الثامن حتى القرن الثالثَ عشرَ الميلاديّ. فقد كان لهذا التقدّم أثرٌ مباشرٌ في مسيرة الحضارة الإنسانيّة عمومًا. وفي هذه الفترة، أصبح العرب والمسلمون سادة العالم وبُناةَ الحضارة فيه، وأصبح علماؤهم منارات مضيئة في تاريخ العلوم، وأصبحت مؤلّفاتهم مراجع أساسيةً لا بدّ لكلّ طالب علمٍ أن ينهل منها، وشهد لهم العالم بأنّهم المؤسسون الحقيقيّون للعلوم الطبيعيّة، وكانوا أساسًا للنهضة الأوروبيّة في غير ميدان.

أمّا اليوم، فتُجمع التقارير الدوليّة على التخلّف الشديد الذي أصاب التعليم والتطوّر العلميّ في الدول العربيّة والإسلاميّة، في عصرنا الحاضر، حتى باتت لوائح تصنيف الجامعات العالميّة، في مجالات البحث والتطوّر العلميّ، تكاد تخلو من ذكرٍ للجامعات العربيّة. بينما تخطو الدول الغربيّة، خطواتٍ كبيرةً جدًّا وسريعةً جدًّا في مجالات التعليم، سهّلت لها قيادة العالم، وأخْذَ زمام المبادرة في تطوير العلوم والمعارف بما يخدم مصالحها التنمويّة، ويجعلها تمسك بمقود الحضارة العالميّة، إمساكًا بلا منازع، ولتذهب بهذه الحضارة إلى حيث تريد، وبما يتماشى مع مفهومها وثقافتها، وحاجات مجتمعاتها، وأخلاقها وقيمها.

فخرج العرب عن مسار التقدّم العلمي، وأصبح بينهم وبين الغرب بونٌ شاسع، وتخلّفت المناهج التعليميّة في العالم العربي عن مواكبة العصر والحداثة، وعن استعمال الوسائل الحديثة والطرق التعليميّة المتطوّرة.

بين التعلّم والتعليم:

يكون التعلّم عمومًا بوسائل معرفيّة مختلفة، منها الملاحظة والتجربة والقياس والتحليل والاستقراء والاستدلال وغير ذلك.

وقد توسّعت مجالات التعلّم في العصر الحديث لتشمل التعلّم الإلكتروني (E-learning) والتعلّم من بعد (Distance learning) وغير ذلك.

أمّا التعليم، فهو إحدى وسائل التعلم التي تُقدَّم إلى طلاب المعرفة من جهةٍ تعليميةٍ رسمية أو خاصّة، يكون نشاطها وعملها مكرّسين لهذه العمليّة التعليميّة، كالمدرسة والجامعة عمومًا.

يقول جبران خليل جبران: «تعلّمت الصمت من الثرثار... والاجتهاد من الكسول... والتواضع من المتكبّر...» لا شكّ في أنّ هذا التعلّم، هو تعلّم من خلال الملاحظة والتحليل، وليس تعلّمًا صفّيًا بالمعنى التقليدي. أي إنّ التعلّم هو كلّ علمٍ أو معرفةٍ نحصل عليها بأنفسنا، أو من خلال الآخرين في البيئة التي نعيش فيها، أمّا التعليم فهو ما توفّره لنا أطراف أخرى من خلال العمليّة التعليميّة التقليديّة المعروفة.

وإلى قريبٍ من ذلك، يذهب ابن خلدون في مقدّمته عندما يتكلّم على عمليّة التعلّم والتعليم وعلى أنّها أخذ وعطاء، وكيف أنّها تتم وفق ثلاث مراحل:

- مرحلة التعلّم والتحصيل (أخذ العلم).
- مرحلة حيازة علم مخصوص.
- مرحلة تعليمه للجيل الجديد (إعطاء العلم).

ويعتبر أنّ هذه المراحل تتكرّر عبر الأجيال، ابتداءً بالتعلّم وانتهاء بالتعليم مرورًا بحيازة العلم وتمثّله.

أمّا العالم وليام جلاسر، في كتابه «نشوء التعلّم» (The evolution of learning) (Bush 1997)، فإنّه يرى أنّ الإنسان يتعلّم 10٪ ممّا يقرأه، و20٪ ممّا يسمعه، و30٪ ممّا يراه، و50٪ ممّا يراه ويسمعه، و70٪ ممّا يناقشه مع الآخرين، و80٪ ممّا يجربه، و95٪ ممّا يعلّمه لشخص آخر.

بين الماضي والحاضر والمستقبل

يكون الكلام عن الماضي أحيانًا من باب التغنّي بالأمجاد، أو الوقوف على الأطلال، أو سرد الوقائع والتأريخ لها، أو من باب أخذ الدروس والعبر وكيفية استنباط حلول المشكلات وأثرها في المجتمع.

والكلام عن الحاضر يكون أحيانًا من باب النقد أو المدح، أو التلميح أو التجريح، أو من باب التحليل والتمحيص أو من باب الوصف للواقع أو من باب الإحصاء والرغبة في التغيير.

والكلام عن المستقبل قد يكون من باب التكهّن، أو الرغبة الجامحة، أو المصلحة المرسلة، أو من باب الافتراض الهادف أو من باب الاستنتاج العلميّ، أو للخروج بالتوصيات والنصائح، أو للتخطيط والتسديد، ولكلّ مقام مقال.

أما الجمع بين الثلاثة الماضي والحاضر والمستقبل في بحثٍ واحد فهو يهدف إلى المقارنة بين الماضي والحاضر أوّلاً، واستخراج نقاط القوّة في كلّ مرحلة، والعمل على تعزيزها والاستفادة منها وتسخيرها في سبيل تحقيق الهدف، وكذلك استخراج نقاط الضعف لمعالجتها والعمل على التخفيف من تأثيرها أو تحييدها أو الخروج منها حتى لا تؤثّر في تحقيق المراد.

وكما يقول الكاتب جودت سعيد في كتابه «إقرأ وربك الأكرم»: «إن الذين لا يعرفون الماضي بوضوح، ليسوا هم الذين يحلّون مشكلات الحاضر بفعالية»، ويقول أيضًا: «إن شعورنا بالمشكلات الحالية وعدم تصورنا جيدًا لمشكلات الماضي، جعل المشكلات الحالية مزمنة بل وتشلّ جهد الإنسان وسعيه الصحيح لإزالتها».

وحتى يكون التخطيط والتسديد بشكل سليم، لا بدّ من الانطلاق من الواقع، مهما كان حلوًا أو مرًّا، نحو الهدف المحدّد. أي، إنّ التخطيط السليم للمستقبل يجب أن يتّسم بالواقعيّة العلميّة، فينطلق من الحاضر، ويعالج نقاط ضعفه، ويعزّز نقاط قوّته. ذلك أنّ المجتمعات لا تقوم إلاّ بما يتّفق مع ماضيها وبما فيه من تراثٍ وفكر، وحاضرِها وبما فيه من واقعٍ وإمكانيّات. ومستقبلُها لا يكون مشرقًا إلا بما يضعه الإنسانُ أمامه من أهدافٍ وطموحات نبيلة يعمل لأجلها. خصوصًا أن التراث الإسلاميّ وما فيه من فكرٍ ومبادئ لا يمثّل ماضيًا وحسب، وإنّما هو قوّة تحثُّ

الحاضر وتسعى إلى تطوير المستقبل.

بين العلم والحضارة:

كثيرة جدًّا هي الحضارات التي قامت وازدهرت واندثرت إلى غير رجعة، ذلك أنّ الزمن يسير دائمًا إلى الأمام، ويتقدّم معه العلم، وتتطوّر معه الحضارة الإنسانية وتزدهر من جيل إلى جيل ومن أمّة إلى أمّة، وقد كتب الباحثون الكثير حول صراع الحضارات، وتكامل الحضارات، وتفاعل الحضارات، وما إلى ذلك، وكلّ ذلك قابل للنقاش والحوار، وفيه الغثّ وفيه السمين، بل في كلّ حضارة ما يُؤخذ منها وما يُردّ إليها. أمّا الحضارة الإسلاميّة، فقد قامت على مبادئ دينيّة وأصولٍ سماوية، شرعها ربّ العالمين. فكان صعودها وتطوّرها ونماؤها مميّزًا بسرعة قياسيّة، وبانتشار واسع لم يسبق له مثيل.

وليس أدَلَّ على ذلك من عهد الخليفة الراشد الخامس عمر بن عبدالعزيز، الذي استمرّ حكمه ما يقارب ثلاثَ سنوات فقط، وكان بعد بدء الدعوة الإسلامية بأقلّ من مئة عام، وقد تحقّق في عهده انتشار الدعوة الإسلاميّة في بقاع واسعة، ودخلت في الإسلام شعوب عديدة، كما تحقّقت في عهده حدود الكفاية لجميع الناس، مسلمين وغير مسلمين، حيث كان يؤتى بمال الزكاة لتوزيعه على الفقراء والمحتاجين، حتى لا يبقى فقيرٌ محتاجٌ؛ كما كانوا يجهزون الجيش من مال الزكاة، ويسدّدون ديون المسلمين وغير المسلمين، من استدان منهم في غير سفهٍ ولا سرف؛ ويزوّجون الشباب ويبقى من مال الزكاة وفرٌ كثير، فيقول عمر بن عبد العزيز: «اشتروا بهذا المال حبوبًا وانثروها على رؤوس الجبال لتأكل الطير من خير المسلمين».

كلّ ذلك كان بسبب الدعوة الإسلاميّة وتطبيق مبادئ الإسلام الحنيف الذي يهدف دائمًا إلى بناء الإنسان المؤمن، العالم، والعامل في بناء مجتمعه، بالمفهوم الإنسانيّ عمومًا، أي في بناء الحضارة الإنسانيّة.

المعلم القدوة:

روى ابن ماجه في «سننه» أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج ذات يوم

من بعض حجره، فدخل المسجد، فإذا هو بحلقتين: إحداهما يقرؤون القرآن ويدعون الله تعالى، والأخرى يتعلمون ويعلّمون، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: كلٌّ على خير، هؤلاء يقرؤون القرآن ويدعون الله، فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وهؤلاء يتعلمون ويعلّمون، وإنما بعثت معلّمًا، فجلس معهم. وفي قوله: «إنما بعثت معلمًا» «إنما» تفيد الحصر.

وفي حديث آخر يرويه مسلم في صحيحه يقول صلى الله عليه وسلم: «إنّ الله لم يبعثني معنّتًا ولا متعنّتًا، ولكن بعثني معلّمًا ومبشّرًا». فرسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، كان معلّمًا للإنسانية، مؤيّدًا بالوحي السماوي، (القرآن الكريم والسنّة المطهّرة) ليُخرِج الناسَ جميعًا من الظلمات إلى النور، من ظلمات الجهل إلى نور العلم، وقد شهد له العالم بأسره بأنّه الرجل الأوّل في العالم، من خلال التغيير الكبير الذي أحدثه في مسيرة الحضارة الإنسانيّة.

يقول مايكل هارت في كتابه «المئة الأوائل»: «إن اختياري محمدًا (عليه الصلاة والسلام) ليكون الأول في قائمة أهمّ رجال التاريخ قد يُدهش القرّاء. ولكنّه الرجل الوحيد في التاريخ كلِّه الذي نجح أعلى نجاح على المستويين الديني والدنيوي». ويقول أيضًا: «وفوق ذلك، فإن محمدًا (صلى الله عليه وسلم) يختلف عن المسيح (عليه السلام) بأنه كان زعيمًا دنيويًا، فضلاً عن أنه زعيم ديني. وفي الحقيقة إذا أخذنا بعين الاعتبار القوى الدافعة وراء الفتوحات الإسلامية، فإن محمدًا (صلى الله عليه وسلم) يصبح أعظم قائدٍ سياسي على مدى الأجيال».

ثم يخلص إلى القول: «نرى أن الفتوحات العربية التي تمّت في القرن السابع استمرّت لتلعب دورًا هامًا في تاريخ البشرية حتى يومنا هذا، وأن هذا الاتحاد الفريد الذي لا نظير له للتأثير الديني والدنيوي معًا يخوّل محمدًا (صلى الله عليه وسلم) أن يُعتبر أعظم شخصية مفردة ذات تأثير في تاريخ البشرية».

تروي كتب السيرة أن عتبة بن ربيعة جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، مرسلاً من قومه، فجلس بين يدي النبي، قائلاً له: «يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئتَ به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفًا سوّدناك علينا... (أي جعلناك ملكًا وسيّدًا علينا). فقال له رسول الله صلى الله عليه

وسلم: «أوقد فرغت يا أبا الوليد» قال: نعم. قال: «فاستمع مني». قال: أفعل. فقال صلى الله عليه وسلم: **(حم * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا...) [فصلت: 1–3]**، كذلك كان رد النبي لعمه أبي طالب عندما حاول ثنيه عن دينه «والله يا عمّ، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي، على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يُظهره اللهُ، أو أهلك فيه».

من يتأمّلْ جيّدًا في هذا الحديث الشريف، والحديث السابق، يجدْ أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، قد حدّد الهدف من رسالته: الدعوة إلى الإسلام من خلال بناء شخصية الإنسان المؤمن. فلا المُلك يستهويه، ولو كان بعضٌ يرى أنّه، من خلال الجاه والسلطان والحكم، يستطيع أن ينشر الخير، فكم من ملكٍ أو رئيسٍ لم يستطع أن يحكم بما أراد، ولو أراد الخير، لأنّ المعوّقات قد تكون أكثر من أن تحصى. ولا المال يغريه ولو كان بعضٌ يرى أنه بالمال يستطيع أن يفعل خيرًا كثيرًا، وكم من ثريٍّ أنفق ماله على عمل الخير، وهو يحسب أنه يحسن صنعًا، فذهب إنفاقه معه، دون أن يترك بصمة في تغيير مجتمعه نحو الأفضل.

أمّا المعلّم الذي وضع نصب عينيه بناء الإنسان المؤمن، العالم العامل، بدأ بنفسه أولاً، فأعدّها وسلّحها بما يجب، من العلم والمعرفة والإخلاص والحكمة، فينطبق عليه قول الشاعر: «كاد المعلّم أن يكون رسولا» ذلك لأنه بحقّ يكون رسول الخير والعلم والحضارة، إلى الإنسانية جمعاء، ولذلك كان التعليم رسالة سامية على مر العصور والأزمنة.

وقد تميّزت الفترة المكّية، التي امتدّت إلى ثلاثةَ عشر عامًا، بعد بدء نزول الوحي، بأنّها فترة إعداد الصحابة الذين أسلموا مع رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، ولم يتجاوز عددهم بضعًا وسبعين صحابيًّا، وأصبح معظمهم قادة الحركة الإسلاميّة التي أسّست لبناء الدولة الإسلاميّة في المدينة المنوّرة وانتشرت بعد ذلك. ومن هنا، يمكن القول أنّ محمّدًا عليه الصلاة والسلام، لم يكن معلّمًا قدوة وحسب، بل كان رائدًا في تأسيس الأكاديميّة الأولى لإعداد القادة في مكّة المكرّمة. فخرج من بين هؤلاء الصحابة، رضوان الله عليهم أجمعين، الدعاة، والقادة العسكريون، ووزراء المال، ورواة الحديث، والعلماء والفقهاء وغيرهم... الذين أقاموا دولة الإسلام ونشروا الحضارة

الإسلاميّة ردحًا طويلاً من الزمن.

يقول العلامة الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة في كتاب «الرسول المعلم»: «فأي معلّم من المربين تخرج على يديه عدد أوفر وأهدى من هذا الرسول الكريم الذي تخرّج به هؤلاء الأصحاب والأتباع؟ فكيف كانوا قبله؟ وكيف صاروا بعده؟ إن كل واحد من هؤلاء الأصحاب دليل ناطق على عِظَم هذا المعلّم المربي الفريد الأوحد. وهذا يذكّرنا بكلمة طيبة جدًا لبعض الجهابذة الأصوليين، يقول فيها: لو لم يكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم معجزة إلا أصحابه، لكفوه لإثبات نبوّته».

بفضل هذا الفهم، حقّقت الحضارة الإسلاميّة نجاحها وانطلاقتها، ولم تضعف وتتراجع إلاّ عندما ترك المسلمون هذا المبدأ الأساس، فتفرّقوا شيعًا ومذاهب. وغرّتهم الحياة الدنيا ومباهجها وزينتها، أكثر ممّا شغلهم الهدف الأساس، وسخّروا العلم لذلك، حتى بدأت مدارسهم تتحزّب لهذا الفريق أو ذاك، وتنصر فريقًا على آخر تحت ستار العلم والحُجّة تارة، أو تحت ستار المصلحة العامّة أو الحضارة والتقدّم العلميّ تارة أخرى. وغاب عنهم فقه الأولويّات، كما غابت عنهم الآية العظمى: **(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ...) [القصص: 77]**.

لذلك كان الهدف من هذا الكتاب قراءة علميّة مقارِنة لمسيرة التعلّم عند العرب، في بعض أهمّ محطّاتها وخصائصها، في ماضيها المشرق وحاضرها الأليم، مع عدد من الوقفات، حول ما يجب التعاون فيه والعمل عليه، لسلوك طريق الغد المرتجى.